قمة الدنيا

إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها

فسوف تقاسي آلاماً وتلاقي كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستتعذب. سيخيل اليك انه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن سوف يمحي. ستعطي أكثر مما أخذت. و تصورت. ستكون رجلا عظيما في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سطر!

ألم تشعر يوماً بأنك تتوقع حدوث شيء لا تعلم ما هو ولا ما هي علاقتك به؟ ألم تفعل شيئاً مجبراً ولا تعلم لماذا فعلته، فرد عنك عادية أو وجهك توجيهاً ترضاه؟ نعم قد اتفق مثل ذلك للكثيرين منا، واتفق أكثر منه لقلائل من الذين أحاطت بهم ظروف بلغت من اليأس حد التسليم بالقدر المقدور. ولا شك عندي في أن لتلك المنزلة التي قال بها بعض المتصوفين وسموها حالة الكشف، حقيقة ترجع اليها في الطبيعة الانسانية. وليست هي من الأشياء التي يحيطها العلم بطرقه المعروفة، وهي طرق تعتمد أول شيء على الحواس، وإنما هي أشياء ترجع إلى ما سماه الفلاسفة «عالم المجهول». فالعلم لم يصل إلى كل شيء، ولا يدعي القدرة على الوصول إلى كل شيء. ولكن «عالم المجهول» درجات تبدأ من حقيقة علمية بسيطة أو قانون كيمياوي أو طبيعي يكون تحت يدنا ويغيب عنا كشفه، إلى الظاهرات الفذة التي لا يعللها العلم ولا يحللها العقل، الا بطريق واحد: طريق الاعتراف بالعجز إزاءها

هذه حادثة واقعية نرويها ونتذكر مصدرها وشخصيها، ولا يزال الامر معنا وفي عهدنا. لنطلب لها تعليلاً ممن يستطيع أن يعللها، على أن لا ترد إلى «المجهول»، الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل.

***

كنا في الصحراء. في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف. سيد وعبيدة، كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات، وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لا صديق له. تفد الماء

خلف الدواب ، ومعهما رجال من الأدلاء والحراس، والعمران قصي بعيد ، والاتجاه في أي متجه من غير علم به ، معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا اليها طريقاً غير مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالها القنوط ، وأبيحت الابل وحلت القافلة في ذلك القفر لا يؤنس لها إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لا محالة : فإما طريق إلى الدنيا ، وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلماً، وهو بعد ممن لم يمكفوا على التصوف يوماً واحداً من أيام حياتهم. حلم بامرأة بيضاء او إنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت بما سوف يقع ، وتكلمت ولكن بلغة الرموز . ولكن هذا الحلم قد اتخذ أول الأمر موضع تسلية ومحل سخرية . ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلماً . لقد كان أكثر من حلم . إنها رؤيا تكاد تكون في يقظة غير تامة ، في صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

وقفت تلك المرأة التي تراءت له إلى جانبه في الصحراء بمقربة من محط الرحال . وكان يرى خيالها على الأرض في ضوء النجوم ، ورأى آثار قدميها في الرمال ، قالت له — « لا تتزعج ، سوف تصل .. ... ولكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل . وقبل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتقي بذلك أجساماً ميتة »

في الصباح جلس السيد والسيدة يناقشان في هذه الرؤيا . ولكنهما لم يشكا هذه المرة في حقيقة الامر ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، عقبات انسانية أو طبيعية ، سوف يجتازانها، وعللا الأجسام الميتة بموقعة تحصل .

في خلال الأسابيع التي تلت تلك الرؤيا ، أحيط بهم ثلاث مرات . أحاط بهم بدو مغادون . وسجنوا في الخيام هما ورجالها ، والبدو من حولهم يناقشون في قتلهم ، وطريقة القتل . وظلا على ذلك حتى أدركهم من أنقذهم .

فلما كان آخر يوم في رحلتهم بين الكثبان المتموجة ، اضطروا إلى الدوران حول وادٍ عميق فيه جثث أموات لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم. جثث آدميين ودواب. هذه قافلة قتلها العطش.

رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية . ففي جوف تلك الصحراء المجرودة العمياء التي لم تخترقها قافلة من قبل ، رأى تلك المرأة في ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة : وقالت له : « خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك وتعال معي إلى قمة هذا الكثيب . ثم أدفنها هنالك. وفي الصباح ، إذا حضرت لتأخذها ، سوف ترى آثار قدميك وقدمي معاً . وبذلك تعرف أنك لم تكن في حلم » .

فعل السيد كما أمر، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت له المرأة: «سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستخان. سيخيل اليك إنه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن، سوف يمضي. ستعطى أكثر مما أمات أو تصورت. ستكون رجلاً عظيماً، في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سُطِّر».

فسألها السيد: وما بال السيدة التي معي؟ ماذا سيحل بها؟»

وفي اليوم التالي قصَّ السيد على رفيقته كيف أن الصوت الذي كان يخاطبه قد تلعثم وارتبك، فأصبح أقرب إلى البشرية، وتفوَّه بكلمات تخللها توقف وتفكير: هذه معانيها — «لا أعرف شيئاً عنها. إنها ليست من ملتنا. ولا أعرف لماذا..... ولكنها سوف تنجو في كل الظروف. هذا محقق. سيحيط بها خطر عظيم، ولكن لا يصيبها شيء. سيحل بها حزن ويأس، ولكنها ستنجو دائماً. ليس في يدها دفع شيء. ليس ذلك في طوق إرادتها. ستسلك طرقاً عجيبة، قد تؤدي إلى الموت — ولكن ليس من نصيبها أن تموت في ذلك. هذا ما كُتب. سوف تنجو».

عند ما ظهر الفجر الكاذب خيطاً أبيض الاهاب باهت اللون فوق الأفق، مبشراً باقتراب الشمس من البزوغ من رمال الصحراء الشرقية، اصطحب السيد رفيقته، وأراها آثار أقدامه ذاهبة إلى أعلا الكثيب، ثم هابطة منه، وإلى جانبها آثار ظاهرة جلية متجانفة للخطو. كانت آثار قدمين عاريتين، ضغطتا على الرمل ضغطاً خفيفاً ليناً، والنسمات من ورائها تسفي عليها الرمال الناعمة.

نظرا إلى هذه الآثار في صمت عميق. وفي صمت أبلغ احتفرا السلة من حيث قال السيد. أما آثار القدمين العاريتين فانحدرت نحو الصحراء العريضة الغبيسة الاسرار. هنالك كانا على بُعد بضعة مئات من الأميال عن كل مكان مأهول.

***

أما السيد فهو أحمد محمد حسنين باشا. وأما السيدة فالمؤلفة الجوالة روزيتا فوربس. وأما الرواية فهي كتابها Gypsy of the Sun — في الصفحات ٤٥ و٤٦ و ٤٧ طبعة نيويورك

***

ألا يحق لنا أن نعتقد ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيرى ما لم يكن مرئياً، من غير أن يدرك كيف رآه؟